العلم والثقافة عبر التاريخ

[هذا البحث القيم ألقاه سعادة الدكتور عبد الله عباس الندوي مدير التعليم بجامعة دار العلوم لندوة العلماء بمناسبة افتتاحه لدار الشريعة التابعة للأكاديمية الفرقانية لصاحبها فضيلة الشيخ محمد شهاب الدين الندوي وذلك ليوم ٢٤/ربيع الأول ١٤١٤هـ المصادف ١٢/سبتمبر ١٩٩٢م ننشرها تعميمًا للنفع ، وقد قام بترجمة البحث الأخ الأستاذ محمد إبراهيم الندوي] [التحرير]

إذا تتبعنا تاريخ الديانات المختلفة في العالم لوجدنا أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي أولى العلم والثقافة الأهمية القصوى واعتبرهما من أسياساته ، فإن التاريخ الإسلامي يبدأ دوره بالوحي الإلهي الذي نزل به الروح الأمين إلى رسولنا الكريم -ﷺ- وهو يتحنث في غار حراء بكلمته الأولى الخالدة ﴿ إقرأ ﴾ في خمس آيات من الذكر الحكيم ، لم يكن نزولها أمرا اتفاقيا وإنما هي إشعار بالحكمة الإلهية والمشيئة الربانية ، اقرأوها معي ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق • خلق الإنسان من علق • اقرأ وربك الأكرم • الذي علم بالقلم • علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ .

امتن الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات الكريمة على بني آدم بنعمتين عظيمتين هما خلق الإنسان وتعليمه ما لم يعلم ، وتكريم الله إياهم بالعلم والحكمة بعد أن خلقهم منة عظيمة سمت بهم إلى منزلة الأشرفية والأفضلية فيما بين الخلائق الأخرى ، و ورد هذا المعني في غير واحدة من آي الكتاب بأساليب مختلفة ، فقد استهلت سورة الرحمن بقوله -عزوجل- : ﴿ الرحمن • علم القرآن • خلق الإنسان • علمه البيان ﴾ فقد أردف الله سبحانه خلق الإنسان بتعليمه ، وهذا ما يدل دلالة واضحة على

أن الذي أنشأ الإنسان امتن عليه بأول وأكبر ما امتن به هو قوة البيان والتبيان ، وإن الترتيب الذي نلتزم به في تلاوة القرآن الحكيم يسمى ترتيب الرسول الكريم -ﷺ- ، وفي مستهل هذا الترتيب بعد المقطعات ورد ذكر الكتاب ، قال سبحانه -عزوجل- : ﴿ ذلك الكتاب ﴾ فلما كانت الكلمة الأولى في ترتيب النزول ﴿ إقرأ ﴾ كانت في ترتيب الرسول كلمة ﴿ الكتاب ﴾ ولذلك كان الفاصل بين فترتي ما قبل النبوة وبعدها تينك الكلمتين ، ولذلك يطلق على ما سبق النبوة من الزمان عصر الجاهلية (Ignorance) .

إن المال والبنين وزينة الحياة الدنيا ومناصبها ومعايشها وأسباب الرفاهية والهناء فيها من النعم التي متع الله سبحانه بها الإنسان ولكنه لم يرغبه في طلب الزيادة والاستكثار من أي واحد منها وإنما دعا إلى الاعتدال والاقتصاد فيها ، فإنه لما علمه دعاء طلب الرزق ﴿ رب ارزقني وأنت خير الرازقين ﴾ قيدته الأدعية المأثورة بالاقتصاد على ما يكفي الحاجة ولا يخرج عن حد الاعتدال فكان الرسول الكريم -ﷺ- إذا دعا الله يطلب الرزق ، قال : « اللهم ارزق ما يكفيني » وأحيانًا : « اللهم ارزقني ما يغنيني » إلا العلم فإنه نعمة لا تضاهيها نعمة ، لذلك جاء الحث على طلب الزيادة اللامتناهية منها ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ وقل رب زدني علماً ﴾ وفي آية أخرى : ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ وأسلوبها نفس أسلوب هذه الآيات الكريمات ، قال رب العزة العليم : ﴿ وما يستوى الأعمى والبصير • ولا الظلمات ولا النور • ولا الظل ولا الحرور • وما يستوى الأحياء ولا الأموات ﴾ [سورة فاطر ، الآية : ٢١] ولم يكتف الإسلام إلى جانب العلم والكتاب بذكر القراء والكتاب فحسب بل أولى كلا

الفريقين أهمية بالغة كما دلت الآيتان الكريمتان من الكتاب العزيز ، قال عز من قائل : ﴿ الذين يقرأون الكتاب ﴾ و ﴿ نٓ • والقلم وما يسطرون ﴾ وهذه الأهمية للعلم والقلم التي تضمنها الكتاب المبين ينعدم نظيرها في جميع الأديان السماوية والمذاهب الوضعية الأخرى التي كان عمادها الوحي والإلهام أو الظن والأوهام .

ومن المستحيل أن تعيش أمة قامت على أساس العلم بمعزل عن العلم والقلم ، فنرى جماعة من الصحابة ممن عرفوا بأصحاب الصفة تلمذوا وتربوا على صاحب الرسالة والوحي -ﷺ- تربية علمية ، وكانت الصفة مدرسة النبوة والوحي الأولى التي خرجت أفذاذا من العباقرة من بينهم ذلك التلميذ النبيه الذي لهجت بذكره كتب السيرة والتاريخ وألا هو الصحابي الجليل عبد الرحمن بن صخر الدوسي الذي اشتهر بكنيته أبي هريرة - رضي الله تعالى عنه - .

والدليل على أن الإسلام ركز أول ما ركز عنايته على العلم فدية أسرى غزوة بدر بأن يقوم كل أسير بتعليم عشرة من أولاد المسلمين ، وكان من الممكن أن يكلفوا بتدريبهم على فنون الحرب والكسب ، والدلالة على مسالك اليمن والشام ومتاجرها وأنواع المعاملات التجارية مع تجارها ، فإنهم كانوا أعلم بهذه الأمور ، وعلى خبرة دقيقة في هذا المجال ، لو تناولنا اهتمام المسلمين بالعلم وموالاتهم مع أهله على مر العصور والأزمان على صفة منسقة متتابعة وبكل ما طرأ من تغييرات وتعديلات وتطورات كثيرة لكان ذلك نفسه موضوع البحث والدراسة والتحقيق .

إن القرن الرابع الهجري من تاريخ الإسلام يعتبر عصرا زاهرا ذهبيا

عصر تدوين المذاهب الفقهية الأربعة ، وعصر تدوين الحديث وتأليفه كالصحاح الستة التي ألفها الأئمة الأعلام كل من البخاري ومسلم والترمذي وأبي داؤد وابن ماجة والنسائي - رحمهم الله تعالى - وكان عصر تدوين التاريخ وفن التفسير وتصنيف كتب مبدئية في الفقه وأصوله إلى علوم النحو والبلاغة والجغرافية والفلك والكيمياء والطب والمنطق والكلام لأول مرة . وفي هذا القرن نفسه أنشئ مركز الدراسات العليا واشتهر ببيت الحكمة وذلك أن الخليفة مأمون الرشيد أمر بنقل علوم فلاسفة اليونان إلى اللغة العربية في عام ٢٠٥هـ الموافق عام ٨٢٠م كما أمر بإقامة نظام الأرصاد وعلى أساس هذه العلوم أسس نظام الملك المدرسة النظامية في أواسط القرن الخامس عام ٤٥٨هـ الموافق ١٠٦٥م .

وكان بيت الحكمة ودار العلوم والمعاهد العلمية الأخرى تغذيها المكتبات التي كانت مفتوحة لكل طبقة من طبقات العلماء ، وكانت دار العلم مكتبة نصف رسمية من هدفها الرئيسي التعريف بالدعوة ، والإشعار بعلوم الطبيعة ، فكانت دار العلم مفتاحا لقيام المدارس المختلفة . والحق أن المكتبات تعتبر بمثابة بذور للمعاهد العلمية التي أتت بالأشجار الوارفة الظلال .

وقال المقدسي عند ما زار المكتبة التي أقامها عضد الدولة بشيراز في أواخر القرن الرابع الهجري : شاهدت مكتبة عضد الدولة ، لها مبنى خاص يقوم عليها ناظر وعين لها أمين وحارس عام وكانوا جميعًا من أهل الأمانة والدين والموثوق بهم من خيار البلاد لم يؤلف كتاب في أي فن من الفنون وقتئذ إلا اشتملت عليه المكتبة ، كانت توضع جميع المخطوطات

في رفوف ، ويكون لكل فن درج خاص وله فهارس تتضمن أسماء الكتب حسب الفنون .

وكان الخليفة الحاكم بأمر الله في العصر الفاطمي قد بنى مكتبة عامة في القاهرة كانت تحتوي على المصادر والمراجع العلمية في كل فن ، يروى أن العلوم التي كانت تعتبر صعبة المنال مستعصية الحصول ويقل عدد علمائها مثل علم الفلك والحساب يقدر عدد الكتب الموجودة فيها بستة آلاف وخمس مائة ، كانت فيها خريطة كرة أرضية من النحاس أعدها بطليموس ، وعدد الكتب التي تضمنتها المكتبة كما قال المقريزي : قد بلغ مائة وعشرين ألفا ، وقال الباحث المصري أبو شامة عبد الرحمن في كتاب الروضتين : إن عددها أكثر من مليون ولما بيعت هذه المكتبة كان أكثر من اشترى من كتبها القاضي الفاضل الأديب الكاتب الشهير في عصره والذي قلده في أسلوبه العلامة الحريري وبديع الزمان الهمذاني ، فإنه اشترى من كتبه مائة ألف وجعلها وقفا على مدرسته المعروفة بـ « المدرسة الفاضلية » .

ومن الغريب أن المؤلفين المعروفين الذين نسمع ونقرأ عنهم كان كثير منهم أمينا أو ناظرا في مكتبة من المكتبات في عهده ، فكان المؤرخ الشهير ابن مسكوية ناظرًا لمكتبة أبي الفضل ابن العميد وكانت تقع بمدينة (ري) التي لم تبعد كثيرا من مدينة طهران .

كانت هذه المكتبة والمكتبات الأخرى سواها وقفا على العامة والخاصة ولم يكن المرء يدفع على المطالعة والدراسة فيها أي أجرة ، حتى إن مكتبة عضد الدولة كانت تزود المؤلفين والباحثين بمستلزمات الكتابة من القلم

والمداد والقراطيس ، وإذا كان الزائر من بلدة نائية وقطع إليها مسافة بعيدة كان من حقه على المكتبة أن تهيئ له وسائل الكتابة من المال الموقوف عليها إلا من أراد أن يسحب الكتاب على طريق الاستعارة فيطلب منه الضمانة المالية أو الرهن من الأمتعة الغالية ، ويقول ياقوت الحموي : إنه كان يظفر ببغيته بدون رهن ، وقال عن مدينة (سرو) التي غادرها عام ٦١٦هـ : « كانت فيها غير واحدة من المكتبات وكلها تعيرني الكتب بدون أي رهن ، كان في بيتي أقل ما يكون مائتا كتاب دائما مما لا يقل ثمنها عن مائتي دينار ، ويقول : كنت استخلص غذاء فكريا من ثمار هذه الروضة العلمية وأبحث عن الدرر النادرة والجواهر المختارة ، أنساني حبها جميع المدن والبلدان وألهاني شغفي بها عن الأهل والولدان ، وإن الفوائد التي حصلت في هذا الكتاب « معجم البلدان » والكتب الأخرى يرجع فضلها إلى هذه المكتبات المختلفة ، يقول : « كنت أرتع فيها وأفتش عن فوائدها ، وأنساني حبها كل بلد وألهاني عن الأهل والولد ، وأكثر فوائد هذا الكتاب (معجم البلدان) وغيره مما جمعته فهو من تلك الخزائن » .

والذي يجدر بالذكر أن العلامة ابن خلدون لما وقف ومقدمته على المكتبة الخاضعة لمسجد قزوين اشترط في وثيقة الوقف المحررة بتاريخ ٢١ من شهر صفر عام ٧٩٩هـ الموافق ٢٤ نوفمبر عام ١٢٩٨م لإعارتها ما يأتي :

١- لا يعار هذا الكتاب إلا من يعتمد عليه .

٢- يكلف المستعير بدفع رهين من نقود غالية أو عين ثمينة .

٣- لا تتجاوز مدة الاستعارة لشخص واحد شهرين فإنها تكفي دراسة

ونسخا .

٤ – من واجب ناظر المكتبة التقيد بشروط هذه الوقفية ومتابعة مطالبة المستعير برد الكتاب إلى المكتبة .

كان أهل الأندلس مطبوعين على تلقى العلم والبحث عن نوادر الكتب العلمية ، وكان الخلفاء أنفسهم والولاة الآخرون مغرمين باستنساخ الكتب وشراء الأوراق المنسوخة وكان أكثرهم شغفا بالعلم الحكم الثاني المستنصر بالله الذي تمتد فتره حكمه ما بين ٣٥٠هـ – ٣٦٦هـ لم يذكر لديه كتاب له قيمة علمية قريبا أو بعيدا لا أمر بجلبه إلى مكتبة قصر القرطبة ، قال صاعد بن أحمد : إن الخليفة الحكم (الثاني) زود مكتبة بكثير من الكتب النادرة ، أمر بجلبها من بغداد ومصر والبلاد الأخرى وكانت المكتبة التابعة للقصر الملكي بقرطبة تزدان بالكتب القيمة من كل علم وفن ، واستطاع بوحده أن يقيم مكتبة عظيمة ضخمة ما استطاعها الخلفاء العباسيون أجمعون في زمان حكمهم الطويل ، والسر في ذلك أنه كان يتمتع بذوق علمي رفيع بنفسه فأثر ذلك في وزيره و ولاته وازدادوا حبًا للعلم واشتدت فيهم الرغبة في انتقاء الكتب وادخارها ، وقلدتهم في ذلك الطبقة المتوسطة وتمتعت بالذوق العلمي حتى شاع فيهم أن من أراد التزلف إلى الحكام أحضر إليهم نسخة من كتاب نادر عثر عليه ، والحاصل أن الرغبة في العلم وطلبه سادت فيهم وراجت وانطبعت بها نفوسهم فكانوا يرون في ذلك أسباب الرقى والتقدم والازدهار فيما يتعلق من أمور دينهم ودنياهم .

والرغبة في توفير الكتب وادخارها لم تكن حكرا على الخلفاء والطبقة

الحاكمة بل كانت تشمل عامة العلماء والفقهاء والأدباء والمؤرخين على السواء . هناك كثير من العلماء والأدباء عرفوا بمكتباتهم منهم القاضي عبد الرحمن الفطيس الذي ولي منصب القضاء عام ٢٩٤هـ . كان حريصا على جمع الكتب وكان يملك خزانة من مختاراتها إلا أنه كان معروفا بالحرص والضن في وقت واحد فلم يكن يعير كتبه أحدا أيا كان إنما كان يسمح للراغب أن يقرأ أو ينسخ منها ما شاء في داخل الخزانة وإذا لج به أحد استنسخ له على حساب جيبه فإن رده إليه أخذ به لراغب آخر فإن لم يرده أمسك عنه وأغمض . وحكى عن الأديب الشهير والمتضلع في علم الجغرافيا أبي عبيدة البكري (م ٤٨٧هـ) أنه لم يكن مولعا بالكتب فحسب بل إذا ظفر بكتاب احتفظ به كما يحتفظ بالتمائم ولفه في منشفة على منكبه .

ذكر الأمير أسامة بن منقذ في « كتاب الاعتبار » غارة الصليبيين التي شنوها على ميناء عكاء ، وقال : إن الاسطول الذي كان يسافر فيه مع أهله وأثاثة من مصر انتبهه الصليبيون كان فيه ثلاثون ألف دينار استأثر به ملك النصارى ورد إليه منها خمس مائة دينار ، وقال : إنها تكفيكم عودة إلى دياركم ، قال : ركب هذا الاسطول خمسون نفرا من أسرتي ولا أكترث بما ذهب من المال والمتاع ولكنه لا يبلى حزني وتأسفي على كتبي النادرة التي يبلغ عددها أربعة آلاف مجلد ، وكلها من أهم المصادر والمراجع حملتها معي في الأسطول .

وقال الفقيه محمد بن القاسم الأنصاري من مواطني (سبتة) بمراكش والذي عاش في القرن الخامس : إن سبتة شهدت اثنتين وستين مكتبة

عام ٨٠٨هـ الموافق ١٤١٥م قبل هجمة البرتغاليين عليها وأعظمها مكتبة الشيخ أبي الحسن الشاري التي هيأها بشراء الكتب من صرفه الخاص وكانت أول مكتبة جعلت وقفا على العلماء في بلاد المغرب .

هذا مجمل ما نستدل به على مدى تعلق أسلافنا بالكتب وعكوفهم عليها ، لو لم يكن هذا التراث العلمي الذي خلفوه لنا لما وسعنا التوصل إلى العلوم الدينية والفنون الأخرى التي دونوها ورتبوها تأليفًا وترجمة ، وليس بقليل ما ضاع من تلك الكتب الثمينة ، ولما رأى الشاعر الإسلامي الكبير محمد إقبال - رحمه الله - مؤلفات علماء الشرق في مكتبات أوربا انفجرت مشاعره الرقيقة بالدموع ، فقال ما معناه : اشتريت روحا بثمن بخس دراهم معدودة وحسبي فخارا ان شريته رخيصا .

والعرب يسمون المكتبة بخزانة الكتب وهي أحق بهذه التسمية فإنها لا تقل قيمة من جواهر الذهب والفضة والأحجار الكريمة بل هي أثمن وأغلى منها فإن هذه الجواهر المادية ظل زائل وقيمتها عارضة أما الجواهر العلمية فتلقى دائمًا غضة طرية وزاهرة بهية .

إن هذا الحفل سعيد مبارك إذ نفتتح به خزانة علمية ونقوم بعملية التشجير والتمثير للأكاديمية الفرقانية التي هي في الحقيقة ثمرة جهود فرد واحد وهمته العالية وسوف تكون محط أنظار العلماء والمحققين في جنوب الهند مثل دار المصنفين في شمال الهند ولجنة الترجمة والتأليف في القاهرة والمجمع العلمي بدمشق .

إن دار الشريعة التي ستجرى فيها الدراسات الفنية وتحقيق المباحث الفقهية والشرعية ستكون عرضا رائعا ثمنيا على الأمة الإسلامية في

هذه المنطقة .

إن الإنجازات التي قدمها الشيخ محمد شهاب الدين الندوي في مجال التحقيق والتأليف لليوم ما هي إلا نموذجًا فريدا لنتاجه العقلي وجهوده الفردي وعكوفه على العلم وانقطاعه إليه دونما مشارك أو مساهم في ذلك . ولكن المشروع الذي يخطو به إلى الإمام تبعا للأكاديمية لا يعنيه فرد واحد وإنما يتطلب مجموعة صالحة تلم إلماما مباشرا بالمسائل الجديدة والقضايا الحديثة وتتحلى بنظرة دقيقة غائرة في تراثنا الفقهي القديم .

وقد شاء القدر أن تحوز ندوة العلماء قصب سبق الاهتمام بتدوين الفقه الجديد قبل ما يناهز تسعين سنة ، وبالتحديد في عام ١٩٠٦م نشرت جريدة « الندوة » الصادرة وقتذاك تحت إدارة العلامة شبلي النعماني والشيخ حبيب الرحمن الشيرواني مقالا مبسطا للشيخ شاه سليمان الفلواري بعنوان : « تدوين الفقه من جديد » ناشد فيه علماء العصر بالبحث عن حل القضايا الجديدة التي لم توجد في زمن تدوين الفتاوى العالمگيرية ، وفتاوى القاضي خان ، ولم تنل هذه الدعوة قبولا عاما واستجابة شاملة لأن الأوساط الدينية والمدارس الإسلامية كانت تصاب بالخناق والتفجر من كلمة الجدة والتجديد ولم تقف ندوة العلماء على ساقها حينئذ من الناحية العلمية حتى أنشئ المجمع العلمي الإسلامي عام ١٩٦١م وصدرت فيه فتاوى العلماء الأحناف المتفق عليها فيما يتصل بالبنك والتأمين ونحو ذلك من مسائل الأخرى الكثيرة . ثم أنشأت رابطة العالم الإسلامي المجمع الفقهي الذي ينتسب إليه سماحة الشيخ أبي الحسن على الحسني الندوي كعضو أساسي وتمثله جميع المذاهب الفقهية وتصدر منه مجلة خاصة . كما أنشأ مؤتمر العالم الإسلامي على نفس الغرار مؤسسة فقهية وشكلت الإمارة الشرعية في ولاية بيهار لجنة

فقهية ، ومما يمتاز به المجمع الفقهي التابع للرابطة الموقرة انه يضم من الأعضاء من يجمعون بين العلوم الإسلامية والإلمام المباشر بالأنظمة المالية السائدة في العصر الحديث . فالذين يتحدثون في ترقيع الأطراف وزرع الأعضاء الإنسانية هم العلماء والأطباء وخبراء العملية الجراحية ويتصفون إلى ذلك بدراسة واسعة في الفقه والفتاوى .

لما كان العلم في بلادنا خصوصا ينشطر إلى شطرين هما : العلم بالقضايا الدينية وأحكامها وحملتها علماء الإسلام ، والإلمام بالقضايا الجديدة حتى يقطعوا الرأي ويبتّوا الحكم في المعلومات التي تحصل لهم من هؤلآء العقلاء .

إن دار الشريعة وضعت نصب عينيها تشكيل هيئة تشتمل على رجال يحملون ذوق البحث والتحقيق إلى جانب النظرة الثاقبة في المذاهب الفقهية الأخرى ويستطيعون دراسة مباشرة للمسائل الجديدة في لغات لا ينطقون بها .

ولا يوجد نظير لما قدمه الشيخ محمد شهاب الدين الندوي من أعمال البحث والتحقيق في قضايا العلوم الطبعية بحيث إنه أخذ التحقيقات العصرية من مراجعها الأصلية ولا يصعب عليه كثيرا البحث عن جزئية دقيقة لأنه من حملة العلوم الدينية والنظرة الثاقبة . وعسى أن تجمع دار الشريعة بين هذه الأوصاف التي هيخصيصة الشيخ محمد شهاب الدين الندوي .

إن هذه المناسبة ليست مناسبة افتخار واعتزازا بل تستوجب منا الدعاء والتضرع والابتهال ، ندعو الله سبحانه أن يتقبل هذه الجهود الخالصة وأن يبارك في هذه الفاتحة الميمونة ، وإلى الله ترجع الأمور .

• • • •

أهم مذاهب الحداثة وحركاتها

سعادة الدكتور عدنان علي رضا النحوي
عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية

١ – الحركة الرمزية :

تمثل الحركة الرمزية محاولة الهروب من الواقع بعد الشعور بالفشل . وبعد تزاحم الغموض والإبهام . إنها تمثل محاولة الاختفاء وراء رمز يخفى الأفكار والثورة وأهم رجالها : (شارل بودلير – ١٨٢١م–١٨٦٧م) و (ستيفان مالدرميه – ١٨٤٢م–١٨٩٨م) و (بول فاليدي – ١٨٧١م – ١٩٤٥م) كلهم في فرنسا ، و (إدجار ألن بو – ١٨٠٩م–١٨٩٤م) في أمريكا . وسميت الحركة أولا بالانحطاطية لشدة هبوط رجالها في المخدرات والفاحشة والخمر ، وحمل الدرب فيها صورة صريحة وقحة عن الجنس . وبعضهم يعتبر الحداثة نشأت مع بودلير .

٢ – الحركة الانطباعية :

إنها تمثل محاولة تسجيل الانطباع الموحد للمعنى أو المزاج أو الضوء أو اللون ، حاول الانطباعيون إعطاء الألوان الطبيعية التي تذيل نفس الحيوية المستمرة للألوان الصناعية ، من رجالها : (وايلد) في قصيدته "سيمقونية باللون الأصفر" و « ماكس دوثندي » الألماني في مجموعته الشعرية : « فوق البنفسجية » وحاولت الانطباعية التركيز على استخدام الألوان ، وشنت حربا واسعة على اللغة في محاولات عديدة . وانطباعية (مونيه) و (رلكه) هي انطباعية الهروب من الصدمة التي تحدثها المشاعر ، أما انطباعية (هولز) فهي انطباعية المشاعر نفسها . وحملت الحركة الانطباعية بذور الحركة المستقبلية والحركة التعبيرية .